

الكفر

عناصر الموضوع

٣٣٢	مفهوم الكفر
٣٣٣	الكفر في الاستعمال القرآني
٣٣٥	الألفاظ ذات الصلة
٣٣٨	أنواع الكفر
٣٤٣	أسباب الكفر
٣٤٨	مواقف أهل الكفر
٣٥٧	صفات الكافرين
٣٦٣	سنة الله في الكافرين
٣٧١	الكفر بعد الإيمان
٣٧٢	توبة الكافر
٣٧٣	عاقبة الكفر

مفهوم الكفر

أولاً: المعنى اللغوي:

جاءت لفظة الكفر في المعاجم اللغوية بمعنى التغطية والجحود، والزرع والستر، قال ابن منظور: «وأصل الكفر تغطية الشيء وكَفَّرَ الرجل: نسبه إلى الكفر. وكل من ستر شيئاً، فقد كَفَّرَهُ وكَفَّرَهُ. والكافر الزارع لستره البذر بالتراب. والكفار: الزراع. وتقول العرب للزارع: كافر؛ لأنه يكفر البذر المبذور بتراب الأرض المثارة، ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَسْفَلَ الْكُفَّارِ بَنَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠]. سُمِّيَ الكافر كافراً؛ لأنه ستر نعم الله عز وجل»^(١).

يقول «الرازي»: «والكفر ضد الإيمان، وجمع (الكافر) (كُفَّارٌ) و (كَفَرَةٌ) و (كِفَارٌ)، وجمع الكافرة (كُوفِرٌ). و (الكفر) أيضاً جحود النعمة وهو ضد الشكر، وقد كفره من باب دخل، وكُفِّرْنَا أيضاً بالضم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا يَكْفِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨]. أي: جاحدون»^(٢).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

عرّفه الراغب الأصفهاني بقوله: «الكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوجدانية، أو النبوة، أو الشريعة، أو ثلاثها»^(٣).

وقد قال: «ابن حزم الظاهري بنفس التعريف السابق للكافر، فقال ما نصه: «جحد الربوبية وجحد نبوة نبي من الأنبياء صحت نبوته في القرآن، أو جحد شيء مما أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما صح عند جاحده بنقل الكافة أو عمل شيء قام البرهان بأن العمل به كفر»^(٤).

وعرفه ابن القيم فقال: «الكفر جَحْدُ ما عُلِمَ أن الرسول جاء به، سواء كان من المسائل التي تسمونها علمية أو عملية، فمن جحد ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم بعد معرفته بأنه جاء به فهو كافر في دق الدين وجله»^(٥).

(١) انظر لسان العرب، ابن منظور، ١٤٥/٥ - ١٤٧ بتصرف.

(٢) مختار الصحاح، الرازي، ص ٢٧١.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧١٤، ٧١٥.

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ١١٨/٣.

(٥) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة، ابن القيم، اختصره الموصلي، ص ٥٩٦.

الكفر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (كفر) في القرآن الكريم (٥٠٤) مرات ^(١).
والصيغة التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٣٠	﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ [البقرة: ١٠٢]. ﴿تَجَرَّيْ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرًا﴾ [القمر: ١٤]
الفعل المضارع	٥٧	﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ آمُونًا فَاحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]
الفعل الأمر	٢	﴿وَأَكْفُرُوا بِالْآخِرَةِ لَعَلَّهْمُ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]
المصدر	٣٧	﴿وَمَن يَتَّبِدْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]
مصدر سماعي	١٥	﴿وَمَا يَحْمَدُ بِعَايِنِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢]
اسم فاعل	١٥٨	﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [آل عمران: ٩١]
صيغة مبالغة	٥	﴿الْقِيَافِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤]

وجاء الكفر في القرآن على خمسة أوجه ^(٢):

- الأول: الإنكار، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]. يعني: أنكروا توحيد الله عز وجل.
- الثاني: كفران النعمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة: ١٥٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلعوم، ص ١٠٢٣-١٠٣٣.

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص ٥١٦-٥١٧.

يعنى: لا تكفروا النعمة.

الثالث: البراءة: ومنه قول الشيطان: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. يعني: إني تبرأت.

الرابع: الجحود: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَاعَزُوا لَهُمْ﴾ [البقرة: ٨٩].
يعنى: جحدوا به.

الخامس: التغطية: ومنه قوله تعالى: ﴿كَمْثَلٍ غَيْثٍ أَحْمَرٍ الْكُفَّارِ نَبَأُهُ﴾ [الحديد: ٢٠].
يعنى: الزراع الذين يغطون الحب.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشرك:

الشرك لغة

مأخوذ من شرك، ومنه: أشرك بالله: كفر، أي: جعل له شريكاً في ملكه تعالى الله عن ذلك^(١)، وقد يأتي بمعنى المخالطة والنصيب، لكن المراد هنا هو الكفر.

الشرك اصطلاحاً

تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه^(٢).

الصلة بين الشرك والكفر

ومن خلال التعريف في اللغة والاصطلاح يتضح مدى التقارب بين اللفظتين، أعني: الكفر والشرك، يقول النووي: «إن الشرك والكفر قد يطلقان بمعنى واحد وهو الكفر بالله تعالى، وقد يفرق بينهما فيخص الشرك بعبدة الأوثان وغيرها من المخلوقات مع اعترافهم بالله تعالى ككفار قريش فيكون الكفر أعم من الشرك»^(٣)، فالمراد بالكفر جحود الله سبحانه وتعالى أما الشرك فهو جعل شريك لله سبحانه وتعالى من خلقه، ولذا جاء في القرآن الكريم: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۖ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢].
فالكفر إنكار للربوبية، والشرك تنقيص من الألوهية^(٤).

٢ الإلحاد

الإلحاد لغة

مادة (ل ح د) تدل على معنى ميل عن استقامة، فيقال: لحد السهم عن الهدف، أي: عدل عنه، ولحد الرجل في الدين: طعن وحاد عنه وعدل وجادل ومارى. ولحد، أي: مال عن طريق القصد، وجار وظلم^(٥).

(١) تاج العروس، الزبيدي، ٢٧/ ٢٢٤.

(٢) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص ٥٨.

(٣) المنهاج، شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، ٢/ ٧١.

(٤) انظر: موسوعة الفقه الإسلامي، التوجيهي، ٤/ ٤٦١.

(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٩٠، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٩٥، مختار الصحاح، الرازي ص ٢٤٧، لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٣٣٨، المصباح المنير، الفيومي ص ٣٢٧، المعجم الوسيط، ٢/ ٨٥٠.

والملاحظ: «الطاعن في الدين المائل عنه»^(١).

الإلحاد اصطلاحاً

هو: «الميل، والجور، والانحراف عن الإسلام، أو الإيمان»^(٢).

الإلحاد المعاصر: الإلحاد المصطلح عليه في هذا العصر، يعني: إنكار وجود الله، والقول بأن الكون وجد بلا خالق، وأن المادة أزلية أبدية، واعتبار تغيرات الكون قد تمت بالمصادفة، أو بمقتضى طبيعة المادة وقوانينها، واعتبار ظاهرة الحياة، وما تستتبع من شعور وفكر عند الإنسان، من أثر التطور الذاتي في المادة^(٣).

الصلة بين الإلحاد والكفر

إن الإلحاد بمفهومه يعد من صور الكفر؛ فالكافر لا يؤمن بالله، ويميل عن الحق إلى الباطل كذا الملحد.

٣ الردة

الردة لغةً:

«من ردد بمعنى: رجع، وارتد الشخص، أي: رد نفسه إلى الكفر»^(٤).

الردة اصطلاحاً:

«الرجوع من الإسلام إلى الكفر»^(٥).

وقيل: قطع الإسلام بنية كفر أو قول كفر أو فعل مكفر سواء في القول، قاله استهزاء أو عناداً أو اعتقاداً^(٦)، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ، فَمَا كَانَ مِنْكُمْ عَلَيْهِ عَاقِبَةٌ﴾ [البقرة: ٢١٧].

الصلة بين الردة والكفر

ومن خلال التعريف فإن لفظة الردة مرادفة للفظ الكفر، فمن ارتد فقد كفر، لكن

(١) المعجم الوسيط، ٢/ ٨٥٠.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ١٧٢.

(٣) مراجع كلمة الإلحاد: غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٢٤٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٣٦، جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٧٦، التعريفات الاعتقادية، سعد آل عبد اللطيف ص ٥٨، الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، آمال العمرو ص ٣٢٧.

(٤) المصباح المنير، الفيومي ص ١٣٧.

(٥) المفردات، الأصفهاني ص ٢١٣.

(٦) حاشيتنا قليوبي وعميرة على شرح العلامة جلال الدين المحلي على منهاج الطالبين، الشيخ محيي الدين النووي أحمد سلامة القليوبي، وأحمد البرلسي عميرة، ٤/ ١٧٥.

الاختلاف أن المرتد كان مسلمًا ثم انقلب للكفر، لكن الكافر لم يُسلم أصلًا فبينهما عموم وخصوص، ولذلك فهي (كفر المسلم بقولٍ صريح، أو لفظٍ يقتضيه، أو فعلٍ يتضمنه، أو هي: قطع الإسلام بنية الكفر، أو قول الكفر، أو فعلٍ مُكفِّر، سواءً قاله استهزاءً، أم عنادًا، أم اعتقادًا، والردة أفحش الكفر وأغلظه حكمًا) (١).

٤ الإيمان

الإيمان لغة

الإيمان في اللغة يراد به معنيان، يظهر معناهما بحسب السياق وهما: الأمن وضده الخوف، والتصديق وضده التكذيب، والمعنيان متداخلان (٢).

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى معنى لغويًا آخر للإيمان؛ وهو أن يكون الإيمان بمعنى الإقرار لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد (٣).

الإيمان اصطلاحًا

«التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أخبر الله ورسوله عنه في القرآن والسنة، وأمر بالإيمان به؛ والانقياد له ظاهرًا وباطنًا» (٤).

فهو قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية (٥)؛ «ويشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله» (٦).

الصلة بين الإيمان والكفر

بينهما علاقة تضاد، والمقصود بالكفر هنا الكفر الأكبر المخرج من الملة، الذي يخلد صاحبه في النار.

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف ٣٥٠/٤٢.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٢٠٧١/٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٥١٨، لسان العرب، ابن منظور، ٢١/١٣.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٩١/٧، الإيمان، عبد الله بن عبد الحميد، ص ١٩-٢١.

(٤) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي، ص ٤١.

(٥) انظر: العقيدة الواسطية، ابن تيمية ص ١٦١.

(٦) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي ص ٤١.

أنواع الكفر

جاء الكفر في القرآن على قسمين، قسم اشتمل على التكذيب والإباء والشك والنفاق، وهذا هو المسمى بالكفر الأكبر، والكفر الأكبر هو المخرج للملة والموجب للخلود في النار، ثم النوع الثاني وهو الكفر الأصغر وهو غير مُخرج من الملة وهو المسمى عند العلماء بكفر دون كفر وهذا النوع ينقص من إيمان العبد الذي اقترف شيئاً من هذا النوع.

أولاً: الكفر الأكبر

الكفر الأكبر هو الذي يُخرج من الملة، ويجعل صاحبه خالداً في النار يوم القيامة، ومن خلال النظر في آيات القرآن يمكن القول إن الكفر الأكبر ورد في القرآن على عدة أنواع: بيانها على سبيل المثال ما يلي:

١. كفر التكذيب.

وقد يسمى بكفر الجحود.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

والمعنى: لا أحد أشدَّ عقوبةً ممن كذب

على الله فقال: إن الله أوحى إليه شيئاً، ولم يوح إليه شيءٌ. ومن قال: سأُنزل مثل ما أنزل الله. وهكذا لا أحدٌ أشدَّ عقوبةً ممن كَذَّبَ بالحق لما جاءه، فالأول مفتر، والثاني مكذب؛ ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾^(١).

قال ابن تيمية: «التكذيب أَخْصُّ من الكفر، فكل مكذبٍ لِمَا جاءت به الرسل فهو كافرٌ. وليس كل كافرٍ مكذباً.

والخارجون عن هذا الإيمان مشركون أشقياء. فكل من كذب الرسل فلن يكون إلا مشركاً، وكل مشركٍ مكذبٌ للرسل، وكل مشركٍ وكافرٍ بالرسل فهو كافرٌ باليوم الآخر، وكل من كفر باليوم الآخر فهو كافرٌ بالرسل وهو مشركٌ»^(٢).

٢. كفر الإباء أو الاستكبار.

وهذا النوع من الكفر أول من اقترفه إبليس، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣١].

والمعنى: لا شك أن إبليس كان مأموراً بالسجود إنما منعه من ذلك الاستكبار

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٢/ ٧٩، ٣٢/ ٩.

والاستعظام^(١).

٣. كفر الشك.

وهذا النوع أيضًا يقوم على عداوة أهل الكفر للرسول، وتشكيك الناس في الله تعالى، وعلى عدم الإيمان بالعقيدة، كإنكار البعث.

كما قال تعالى حكاية عن صاحب الجنتين: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۖ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۚ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نَّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ۚ لَّكَآءًا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۚ﴾ [الكهف: ٣٥-٣٨].

يقول: الشنقيطي قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾، بعد قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، يدل على أن الشك في البعث كفر بالله تعالى.

وقد صرح بذلك في أول سورة «الرعد» في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُكُمْ أَيْدَا كُنَّا تُرَابًا لَّنَا لَعْنَىٰ خَلْقِي جَدِيدٌ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَىٰ فِي أَعْنَافِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۚ﴾ [الرعد: ٥]^(٢).

٤. كفر النفاق.

وهذا يعد من أشد أنواع الكفر، لاسيما وقد أعد الله تعالى للمنافقين عذابًا في الدرك الأسفل من النار، ولقد بينت سورة البقرة فضائح أهل النفاق.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة: ٨-٩].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٢﴾ [المنافقون: ٣].

ثانيًا: الكفر الأصغر

أوهو كل معصية ورد في الشرع تسميتها كفرًا، ولم يصل إلى حد الكفر الأكبر المخرج عن ملة الإسلام، والذي يخلد صاحبه في النار، والكفر الأصغر لا يخرج صاحبه من الملة، لا يكون صاحبه كافرًا يترتب عليه ما يترتب على الكافر الجاحد أو أحكام الكفر الأكبر، بل هذا النوع من الكفر يعمل على نقص الإيمان عند صاحبه وضعفه، والذي جاء بشيء من الكفر الأصغر له ما للمسلمين من حقوق، وعليه ما عليهم من واجبات.

ولذا قيل في تعريفه: وهو ما لا يناقض أصل الإيمان؛ بل ينقصه ويضعفه، وهو المشهور عند العلماء بقولهم: كفر دون كفر

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٢٥.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٢٧٧.

ويكون صاحبه على خطر عظيم من غضب الله عز وجل إذا لم يتب منه؛ وقد أطلقه الشارع على بعض المعاصي والذنوب على سبيل الزجر والتهديد؛ لأنها من خصال الكفر، وهي لا تصل إلى حد الكفر الأكبر، وما كان من هذا النوع فمن كبائر الذنوب^(١).

ومنه قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

والمعنى هنا كفران النعمة، قال مقاتل: «ومن كفر النعم فلم يوحد ربه عز وجل فإن الله غني عن عبادة خلقه حميد^(٢)»، وللكفر الأصغر عدة أنواع من أبرزها ما يلي:

١. كفر النعمة.

معناه: جحودها وعدم شكرها، ولقد دلل القرآن على هذا النوع.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ وَلَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

والمعنى: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ولئن كفرتم، أي: كفرتم

النعم وسترتموها وجحدتموها^(٣).

فكفرهم ليس كفر ملة بل كفر نعمة لم يشكروا ربهم، وكفر النعمة فيه خمس مسائل كما ذكر الفوزان في شرحه لكتاب التوحيد فقال ما نصه:

المسألة الأولى: أن إضافة النعم إلى الله سبحانه وتعالى من الإيمان بالله.

المسألة الثانية: أن إضافة النعم إلى غير الله من الكفر بالله سبحانه وتعالى.

المسألة الثالثة: في الآية وأقوال السلف دليل على عدم جواز نسبة الأشياء إلى أسبابها، وأن ذلك من كفر النعمة، لأنه معلوم أن الريح الطيبة سبب لجريان السفينة، وأن حذق الملاح سبب لجريان السفينة، ولكن إذا أضاف النتيجة الطيبة إلى هذين السببين صار ذلك من الكفر بنعمة الله.

المسألة الرابعة: فيها اجتماع الضدين في القلب؛ الكفر والإيمان أخذًا من قوله تعالى:

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

ففيها: اجتماع الإقرار والإنكار، والكفر والإيمان في القلب، فأيهما غلب على صاحبه صار من أصحابه.

المسألة الخامسة: أن كفر النعمة يكثر وقوعه في الناس، وهو ما يجري على السنة

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/٤٧٩.

(١) الإيمان، عبد الله بن عبد الحميد ص ٢٤٩.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/٤٣٤.

[الهمزة: ١].

والمعنى: ويل لكل طعان قبوح عياب في الناس، ومنه قول مقاتل بن سليمان: «يعني الطعان المغتاب الذي إذا غاب عنه الرجل اعتابه من خلفه، لمزة، يعني: الطاعي إذا رآه طغى عليه في وجهه»^(٣).

وَيَبِّتُ الشُّنَّةُ كُفْرَ الطَّعَانِ كما في الحديث عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اثنتان في الناس هما بهن كفرة: الطعن في النسب، والنياحة على الميت)^(٤).

قال النووي معلقاً على الحديث: «وفيه أقوال: أصحها أن معناه هما من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية، والثاني أنه يؤدي إلى الكفر، والثالث أنه كفر النعمة والإحسان، والرابع أن ذلك في المستحل، وفي هذا الحديث تغليظ تحريم الطعن في النسب والنياحة»^(٥).

٤. من ادعى إلى غير أبيه.

قال تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥].

الإسلام جاء لينظم علاقات الأسرة على

الناس، فهذا مما يوجب الحذر منه، وأن الإنسان لا يجري على العوائد المخالفة للشرع^(١).

٢. قتال المسلم.

فيقتل المسلم أخاه بغير حق، ويدل على ذلك ما جاء في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَلَنْ طَافِقَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَأَصْلَحُوا يَتَنَهَّأ﴾ [الحجرات: ٩].

وفي الحديث عن زبيد، قال: سألت أبا وائل عن المرجئة، فقال: حدثني عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر)^(٢).

وبالجمع بين الحديث والآية يتضح أن قتال المسلم لا يخرج من الإيمان، كما أن قتال المسلم يعد من الكفر الأصغر، وليس من الكفر المخرج من الملة، فلم يتصفوا بخلاف الإيمان مع اقتتالهم.

٣. الطعان في الأنساب.

ففي القرآن الكريم جاءت سورة تدم هذا الصنف من الناس وهي سورة الهمزة قال الله تعالى: ﴿يَبْلُغُ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لَمَزَةٌ﴾

(١) إغاثة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، الفوزان، ١٥٣/٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، ١٩/١، رقم ٤٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي صلى الله عليه وسلم: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)، ٨١/١، رقم ٦٤.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان، ٨٣٧/٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة على الميت، ٨٢/١، رقم ٦٧.

(٥) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، ٥٧/٢.

وهناك أنواع كثيرة من الكفر الأصغر زيادة على ما سبق، لا يتسع المقام لذكرها.

الأساس الطبيعي لها، ويحكم روابطها، ويجعلها صريحة لا خلط فيها ولا تشويه أبطل عادة التبني، ورد علاقة النسب إلى أسبابها الحقيقية^(١).

وأسبابها الحقيقية تقوم على البنية الحقيقية من نحو الزواج والتناسل، فجاء الإسلام ليقضي على عادة التبني كما كان شائعاً في الجاهلية، فكان كل من أعجب بولد نسبه لنفسه، وكل من أعجب بواحد ينسب نفسه إليه ويقول: والدي، ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه العادة.

كما في الحديث عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (لا ترغبوا عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فهو كفر)^(٢). والمعنى وليس المراد بالكفر حقيقة الكفر التي يخلدُ صاحبها في النار^(٣).

وعلى ذلك فإنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الكفر -بالعبد- أن يسمى كافراً، وإن كان ما قام به كفر، وأما الشعبة نفسها فيطلق عليها اسم الكفر^(٤).

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٨٢٥/٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من ادعى إلى غير أبيه، ١٥٦/٨، رقم ٦٧٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم، ٨٠/١، رقم ٦٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٥/١٢.

(٤) انظر ضوابط وأصول في التكفير، عبداللطيف آل الشيخ، ص ٤٥.

يقوم على اتباع الغير دون علم، وهذا النوع كان سبباً لاستمرار أهل الكفر على كفرهم، بدعوى اتباع من سبقهم حتى وإن كانوا على ضلال، فأدى بهم الأمر إلى الركون إلى الكفر، والمقلد الكافر هو الذي قال عنه الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَقُولُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

ومعنى ﴿أَلْفَيْنَا﴾ صادفنا، فعنفهم الله وعاب عليهم تقليدهم آبائهم (٢).

وبسبب تقليدهم اتبعوا من أضلهم، فكان عاقبتهم الخسران في يوم القيامة، وأن خلدوا في النار، وأصبحت أمنيته أن لو أطاعوا الله والرسول صلى الله عليه وسلم كما أخبرنا القرآن بذلك:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ٦٤ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلْيَةً وَلَا نَصِيرًا ٦٥ يَوْمَ تُغْلَبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ٦٦ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا آلَسِيلًا ٦٧ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنِّمْ لَعْنَا كَبِيرًا ٦٨﴾ [الأحزاب: ٦٤ - ٦٨].

والمُقلد مذموم؛ لأنه انصرف من الحق إلى الباطل، ولم يفسح لعقله مجرد التفكير، فإذا سئل عن سبب كفره كان رده: ﴿قَالُوا

أسباب الكفر

تعددت أسباب الكفر فمنها ما هو نابع من داخل صاحبه، وهي تتعلق بالقلب وتسمى بالأسباب الاعتقادية، أو أسباب شكية، وتتمثل في إنكار وجود الله سبحانه وتعالى، وأيضاً جحود الأنبياء، وعدم الإيمان بالكتب المنزلة، ولقد حمل على ذلك عدة أسباب منها التقليد، والاستكبار، والحسد والجهل.

أولاً: التقليد:

عرفه ابن تيمية فقال: هو قبول قول الغير بغير حجة، كالذين ذكر الله عنهم أنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠].

قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَقُولُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. وقال: ﴿إِنَّهُمْ أَفْرَاءُ آبَاءَ مُرْضَايِنَ ٦٦ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُرْعَوْنَ ٦٧﴾ [الصافات: ٦٩ - ٧٠].

ونظائر هذا في القرآن كثير، فمن اتبع دين آبائه وأسلافه لأجل العادة التي تعودها وترك اتباع الحق الذي يجب اتباعه فهذا هو المقلد المذموم، وهذه حال اليهود والنصارى؛ بل أهل البدع والأهواء في هذه الأمة الذين اتبعوا شيوخهم ورؤساءهم في غير الحق (١). ومن خلال التعريف يتضح أن التقليد

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٤/ ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) معاني القرآن وإعرايه، الزجاج ١/ ٢٤١.

وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبِيدِينَ ﴿٥٣﴾ [الأنبياء: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ

يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ [الشعراء: ٧٤].

وأما ذلك مما فيه بيان أن من أطاع مخلوقاً في معصية الله: كان له نصيبٌ من هذا الذم والعقاب. والمطيع للمخلوق في معصية الله ورسوله: إما أن يتبع الظن؛ وإما أن يتبع ما يهواه وكثيرٌ يتبعهما. وهذه حال كل من عصى رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن أهل البدع والفجور من هذه الأمة.

كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣].

ثانياً: الاستكبار

الاستكبار هو الركون للهوى، ومنه قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ يَتْلِيَانَا فَاستَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَيْسَ شَيْءٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْسَرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِدُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِتَنَّ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِرْيَالُ فِي الْأَرْضِ وَمَا

نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس: ٧٥-٧٨].

والاستكبار ينتج عنه كفر الإباء، وأول من تزعم وتسربل بهذا الاستكبار كان إبليس، يقول ابن القيم: «وأما كفر الإباء والاستكبار فنحو كفر إبليس، فإنه لم يعجد أمر الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار، ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول، وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم ينقد له إباءً واستكباراً، وهو الغالب على كفر أعداء الرسل، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرٍ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون: ٤٧]» (٢).

والاستكبار أو التكبر من أشد الصفات ذمّاً، طُرِدَ إبليس بسببه وأصبح من الصاغرين.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَأَهْطِ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣].

وبه خالف أمر ربه، ومن وقتها ناصب العداء لبني آدم، يقول البغوي: ﴿فَأَهْطِ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، وقيل: من السماء إلى الأرض قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ﴾، بمخالفة الأمر، ﴿فِيهَا﴾، أي: في الجنة، ولا ينبغي أن يسكن الجنة ولا السماء متكبرٌ مخالفٌ لأمر الله، ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، من الأذلاء، والصَّغَارُ: الذل

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ٣٤٦/١.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٩٨/٤.

والمهانة»^(١).

ومن آفات الاستكبار الصد ومحاربة دين الله تعالى، واستحلال المحرمات، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

والمعنى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تكبر وتجبر وطفى. ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: أصنافاً، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته. وقوله: ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ يعني: بني إسرائيل. وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم. هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أخس الأعمال، ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم، ويستحي نساءهم، إهانة لهم واحتقاراً^(٢)، والله تعالى أعد لمن يتكبر عذاباً أليماً قال تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].

ثالثاً: الحسد

والحسد هو تمني زوال نعمة الغير، لعن إبليس بسبب حسده؛ لأنه عندما أمر بالسجود لآدم عليه السلام حسده، قال

(١) معالم التنزيل، البغوي، ١٨٢/٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢٢٠/٦.

تعالى: ﴿قَالَ يٰٓإِبْرٰهِيْمُ مَا لَكَ اَلَّا تَكُوْنَ مَعَ السَّٰجِدِيْنَ﴾ [٣٢] قَالَ لَمْ اَكُنْ لَّاسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَٰلِحٍ مِّنْ حَمْلٍ مَّسْنُونٍ [٣٣] قَالَ فَخُْرِجْ مِنْهَا فَاِنَّكَ رَٰحِيْمٌ [٣٤] وَاِنَّ عَلٰیكَ اَللْعٰنَةَ اِلٰی يَوْمِ الدِّيْنِ [٣٥] [الحجر: ٣٢-٣٥].

والمعنى: يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمره الملائكة بالسجود له. ويذكر تخلف عدوه إبليس عن السجود له من بين سائر الملائكة، حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ اَكُنْ لَّاسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَٰلِحٍ مِّنْ حَمْلٍ مَّسْنُونٍ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿اَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقوله: ﴿اَرٰءَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلٰی لٰٓئِن اٰخَرَتَيْنِ اِلٰی يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَآخَتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ اِلَّا قَلِيْلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]^(٣).

وتوارث هذا الحسد من بعده أهل الكفر، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيْرٌ مِّنْ اَهْلِ الْكِتٰبِ لَوْ يَرُدُّوْكُمْ مِّنْ بَعْدِ اِيْمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ اَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

يخبر تعالى المؤمنين بنفسية كثير من أهل الكتاب، وهي الرغبة الملحة في أن يتخلى المسلمون عن دينهم الحق ليصبحوا كافرين، ومنشأ هذه الرغبة الحسد الناجم عن

(٣) المصدر السابق، ٥٣٤/٤.

نفسية لا ترغب أن ترى المسلمين يعيشون في نور الإيمان بدل ظلمات الكفر^(١).

ويبين ابن القيم سبب عداة اليهود الدائم للمسلمين، فيقول: «فحملهم الحسد والبغى على الكفر به وتكذيبه»^(٢).

ويذكر ابن القيم أركان الكفر فيقول: «أركان الكفر أربعة: الكبر والحسد والغضب والشهوة، فالكبر يمنعه الانقياد، والحسد يمنعه قبول النصيحة ويذلها، والغضب يمنعه العدل، والشهوة تمنعه التفرغ للعبادة»^(٣).

قال تعالى أيضًا مدللًا على حسد أهل الكفر: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤].

وسبب هذا الحسد الدائم فيهم أنهم يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم اختصوا بالنبوة دون غيرهم من الناس، وقد بين الله سبحانه أن ذلك وهم، فقال تعالى كلماته: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

أي: إذا كنتم تحسدون الناس لما توهبتم أن النبوة فيكم، وأنكم أهل الوحي دون غيركم، فقد كذبتكم على أنفسكم^(٤). فكان وقوع الحسد منهم هو طريقهم

للكفر بسبب أضغان قلوبهم.

رابعًا: الجهل

كفر الجهل يقوم على عدم التصديق بسبب جهل صاحبه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ﴾ [يونس: ٣٩].

والمعنى: بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وهو القرآن الكريم؛ والناس دائمًا أعداء لما جهلوا^(٥).

والمعنى أنهم سارعوا إلى التكذيب بالقرآن في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره وقبل أن يتدبروه. وإنما يكون مثل هذا التكذيب عن مكابرة وعداوة لا عن اعتقاد كونه مكذوبًا. ثم إن عدم الإحاطة بعلمه متفاوت: فمنه عدم بحث وهو حال الدهماء، ومنه عدم في الجملة وهو ما يكون بضرب من الشبهة والتردد أو يكون مع رجحان صدقه، ولكن لا يحيط بما يؤدي إليه التكذيب من شديد العقاب^(٦).

أمر الله تعالى أن يوضح الرسول صلى الله عليه وسلم للمشركين حقيقة الإسلام، الذين طلبوا الأمن من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لأنهم لا يعلمون عنه شيئًا، فإذا علموا فقد أقيمت عليهم الحجة.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

(٥) انظر: أوضح التفاسير، محمد عبداللطيف الخطيب، ٢٥٢.

(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١١/١٧٢.

(١) انظر أيسر التفاسير، الجزائري، ٩٨/١.

(٢) إغاثة اللهفان، ابن القيم، ٣٦٦/٢.

(٣) الفوائد، ابن القيم، ص ١٥٧.

(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٤/١٧١٨.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ قَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٨٣) حَقٌّ إِذَا جَاءَهُ وَقَالَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا أَنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) [النمل: ٨٣-٨٤].

والمعنى على ذلك: كذبتُم بآياتي غير عالمين بها. يعني: ولم تفكروا في صحتها بل كذبتُم بها جاهلين غير مستدلين، لا عن خبرة ولا عن معرفة بيطلائها، أما إذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تفكروا فيها؟ (٢).

أَسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّلِعْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) [التوبة: ٦].

ومعنى ﴿وَأَنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتلهم ﴿أَسْتَجَارَكَ﴾ طلب منك الأمان من القتل ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فاجعله في أمان ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ القرآن فتقيم عليه حجة الله وتبين له دين الله ﴿ثُمَّ اتَّلِعْهُ مَأْمَنَهُ﴾ إذا لم يرجع عن الشرك لينظر في أمره ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يفعلون كل هذا؛ لأنهم قومٌ جهلةٌ لا يعلمون دين الله وتوحيده (١).

ومن آفات كفر الجهل في الدنيا أنه يزين لصاحبه أنه يفعل خيراً، وهو في حقيقة الأمر لا يُقَدِّمُ إلا شراً، ومن هذه الشرور الإفساد في الأرض، والتهكم على المؤمنين.

قال تعالى مبيناً حال الكافرين المفسدين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾ [البقرة: ١١-١٣].

وقد بين الله حال هؤلاء الجهلة في يوم القيامة، فكان عقابهم أن يحشروا أفواجاً، ثم يساقون كالأنعام.

(٢) التفسير البسيط، الواحدى ١٧/ ٣٠٧.

(١) الوجيز، الواحدى ص ٤٥٤.

مواقف أهل الكفر

تعددت مواقف أهل الكفر من الله تعالى فجحذوا وجوده، وكذبوا بآياته، وكفروا برسله، وأنكروا كتبه المنزلة على أنبيائه، واتخذوا آيات الله هُزْوَاً، ولم يسلم رسل الله من محاربة أهل الكفر لهم، بل منهم من قتل، ومنهم من هاجر ومنهم من لحقه الأذى بسبب الدعوة، وأنكروا اليوم الآخر، والبعث والنشور، وتهكموا بقولهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجمانية: ٢٤].

كما سجل عليهم القرآن ذلك، وقتلوا وباروزا أهل الإيمان بالحرب الضروس إلى يوم الدين، واتبعوا الشياطين فزينوا لهم أعمالهم، كل هذا من أجل صدهم عن دين الله تعالى.

أولاً: موقفهم من الله تعالى:

من أشد مواقف الكفار موقفهم من الله تعالى خالفهم، ومن أبرز مواقفهم كما حكى القرآن ما يلي:

١. الكفر.

وأهل الكفر يصرون عليه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ

وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

والمعنى: يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً طريقاً وسطاً بين الإيمان والكفر، ولا واسطة؛ إذ الحق لا يختلف فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بالإيمان برسله وتصديقهم فيما بَلَّغُوا عنه تفصيلاً أو إجمالاً، فالكافر يبعض ذلك كالكافر بالكل في الضلال^(١).

٢. التكذيب.

وهو افتراء الكذب على الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

وقد عبر القرآن عن كذب أهل الكفر بالظلم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٢١].

والمعنى: من أشد ظلمًا ممن اختلق على الله قول الباطل، أو جحد آياته وأدلتها، إنه لا يفلح الظالمون أي: لا ينجح القائلون على الله الباطل^(٢).

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١٠٦/٢.

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١٩٨٢/٣-١٩٨٣.

والرسل بعدة أسلحة كان التكذيب أولها، فكانت عاداتهم كلما جاءهم الأنبياء أو الرسل يقابلونهم بالتكذيب والأذى فأصبح التكذيب مطيتهم.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (١٨٤) [آل عمران: ١٨٤].

وقال تعالى مخبراً عن قوم صالح - أصحاب الحجر: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ (٨٠) [الحجر: ٨٠].

٢. الاستهزاء.

التهكم والسخرية من الأنبياء والمرسلين عادة من عادات الكفار.

قال تعالى: ﴿يَحْضَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٠) [يس: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۖ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٧) [الزخرف: ٦-٧].

والمعنى: وما يأتي شيع الأولين من رسول من الله يرسله إليهم بالدعاء إلى توحيده، والإذعان بطاعته، إلا كانوا به يستهزون: يقول: إلا كانوا يسخرون بالرسول الذي يرسله الله إليهم عتوا منهم وتمرداً على ربهم^(٣)، فإن الاستهزاء أو التقليل من شأن الأنبياء والرسل هو كفر

٣. اليأس من رحمة الله.

القنوط صفة لازمة لأهل الكفر.

قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (٥٦) [الحجر: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

والمعنى ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ يقول: لا يقنط من قرجه ورحمته ويقطع رجاءه منه ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، يعني: القوم الذين يجحدون قدرته على ما شاء^(١)، ثم جعل اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين؛ إذ فيه إما التكذيب بالربوبية، وإما الجهل بصفات الله تعالى^(٢).

٤. جحود النعم.

وهو إنكار نعم الله تعالى، وعدم مقابلتها بالشكر، ومقابلة الجحود بالإهلاك.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١١٢) [النحل: ١١٢].

ثانياً: موقفهم من الأنبياء والرسل:

١. التكذيب.

اعتاد أهل الكفر على محاربة الأنبياء

(١) جامع البيان، الطبري، ١٦/ ٢٣٢.

(٢) الجواهر الحسان، الثعالبي، ٣/ ٣٤٨.

(٣) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٦٩.

مخرج عن الملة، قال السعدي: «فإن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر مخرج عن الدين؛ لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله، وتعظيم دينه ورسوله، والاستهزاء بشيء من ذلك منافٍ لهذا الأصل ومناقض له أشد المناقضة»^(١).

٣. إيذاء الرسل.

ومن صور الإيذاء الاعتداء عليهم باللسان واليد، فما من نبي جاء إلا وآذاه قومه، ولعل الأذى قد جاءهم من أقرب الناس إليهم.

وذلك قال تعالى: ﴿لَتَبْلُوكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ولقد تنوعت صور الإيذاء بين وصفهم بالسحرة والصاق الجنون بهم، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ أَلْسِنَهُمْ مَسْدَرًا لَهُمْ لَيَكْفُرُوا بِمَا عَدُّوا لَهُمْ وَنَحْمِلُ أَسْفَارَهُمْ وَيَسْخَرُونَكَ مِنْكَ سَخِرَ كَذَابٌ﴾ [ص: ٤].

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَلْهُ أَوْ جِنُّهُ﴾ [الذاريات: ٥٢].

والمعنى: يصبر رسوله صلى الله عليه وسلم على أذاهم بنسبتهم إياه إلى السحر

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٤٢ - ٣٤٣.

والجنون^(٢).

٤. القتل.

وهذا الأمر كان فاشيًا في الأمم السابقة وخاصة اليهود، ولقد سجل الله تعالى على اليهود ذلك فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وقال تعالى: ﴿فَمَا نَقِضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء: ١٥٥].

وتعددت صور القتل فقد شُقَّ زكريا بالمنشار نصفين، وقُطعت رأس يحيى، وتآمر النصارى على صلب عيسى فنجاه الله ورفع^(٣).

ثالثًا: موقفهم من الكتب المنزلة:

١. التكذيب.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا نَزَّلْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا نَزَّلْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا

(٢) تأويلات أهل السنة، أبو منصور الماتريدي، ٣٩٢/٩.

(٣) انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر، ٥٦/١٩.

تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٩﴾ [إبراهيم: ٩].

والمعنى: أنهم لما سمعوا كتاب الله عز وجل تعجبوا منه، ووضعوا أيديهم على أفواههم تعجباً^(١).

لذلك أعد الله تعالى لمن كذب بشيء من آياته العذاب الأليم، وسماهم بالظالمين. قال تعالى: ﴿فَنَآظِرَةٌ مِّنْ كَذَبِ يَتَائِفِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجَرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

٢. الاستهزاء بالآيات.

ولقد ذم الله تعالى هؤلاء الذين يتخذون آيات الله هزواً، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ مَّآثِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية: ٩].

يقول ابن كثير: «أي: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذه سخرياً وهزواً، أولئك لهم عذابٌ مهينٌ، أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به».

سئل الشافعي عن من هزل بشيء من آيات الله تعالى فقال: «هو كافر»^(٢).

واستدل بقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ نَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿٣﴾ [التوبة: ٦٥].

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن طالب ٣٧٨٠/٥.

(٢) الصارم المسلول، ابن تيمية، ص ٥١٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢٦٥/٧.

٦٦.

٣. التحريف.

وهو بمعنى التبديل والتغيير، أخبرت آيات القرآن عن حال اليهود والنصارى وما فعلوه من تحريف في التوراة والإنجيل، فقال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهَا مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

يقول القرطبي: «هم علماء اليهود الذين يحرفون التوراة فيجعلون الحرام حلالاً والحلال حراماً اتباعاً لأهوائهم». ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: عرفوه وعلموه. وهذا توبيخٌ لهم، أي: إن هؤلاء اليهود قد سلفت لأبائهم أفاعيل سوء وعناد، فهؤلاء على ذلك السنن»^(٤).

ليس هذا بل كتبوا كلاماً بأيديهم وزعموا كذباً نسبته إلى الله تعالى: ﴿قَوْلِيلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً قَوْلِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلِيلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

٤. قولهم أساطير الأولين.

أي: أباطيل قصص من سبق.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ [الفرقان: ٥].

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/٢.

فتحدهم الله تعالى بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ
نَقُولُهُ بِئَلَاءَ يَوْمُئِذٍ﴾ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ
كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ [الطور: ٣٣-٣٤].
ثم خفف عنهم بأن يأتوا بعشر سور من
القرآن فقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ
مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ﴾ [هود: ١٣].

فعجزوا، فخفف عنهم التحدي على
أن يأتوا بسورة: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾
[البقرة: ٢٣].

فعجزوا عن الإتيان بأقصر سورة من
سور القرآن.

رابعاً: موقفهم من المؤمنين:

١. المعاداة والقتل.

يحاول أهل الكفر دائماً قتال أهل
الإسلام، حتى يردوهم عن دينهم.
قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى
يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا﴾
[البقرة: ٢١٧].

والمعنى: إخبار عن دوام عداوة الكفار
لهم، وإنهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم
عن دينهم^(١).

٢. الاستهزاء والسخرية.

قال تعالى: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
وَسَعْرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١٣٧.

﴿١١٢﴾ [البقرة: ٢١٢].

والمعنى: ويسخرون من ضعفاء
المسلمين، يوهمونهم أنهم على حق،
والمراد بذلك علماء اليهود، أو مشركو
العرب، والذين اتقوا فوق الكفار^(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا
مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ
يَتَّبِعُهُمْ وَكِبْرُهُمْ ﴿١١٣﴾ وَإِذَا اتَّقَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَقْبَلُوا
فَكِبَهُمْ ﴿١١٤﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ
﴿١١٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿١١٦﴾ فَلْيَوْمَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿١١٧﴾ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ
يَنْظُرُونَ ﴿١١٨﴾ هَلْ ثُوبَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١١٩﴾
[المطففين: ٢٩-٣٦].

الغمز: الإشارة بالجنف والحاجب، أي
يشيرون إليهم بالأعين استهزاءً. ﴿وَإِذَا
أَقْبَلُوا﴾ - يعني الكفار - ﴿وَإِذَا أَقْبَلُوا إِلَىٰ
أَهْلِهِمْ أَقْبَلُوا فَكِبَهُمْ﴾، معجبين بما هم فيه
يتفكهون بذكرهم^(٣).

٣. الحسد وكرهية الخير.

فأهل الشرك لا يحبون أن يصاب المؤمن
بخير أبداً من ربه، ولذلك قال تعالى فاضحاً
إياهم: ﴿مَّا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِنَانِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ
مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿١٥٠﴾

(٢) تفسير القرآن، العز بن عبد السلام، ١/ ٢٠٦.

(٣) معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٢٢٧.

[البقرة: ١٠٥].

والإنكار والكفر.

١. الكفر والتكذيب.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ (٤٥).
[الأعراف: ٤٥].

والمعنى على ذلك ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾
٤٥ وهم على ضلالهم وإضلالهم
كافرون بالآخرة كفراً متأسلاً في نفوسهم،
فلا يخافون عقاباً على جرمهم، ولا ذمّاً
ولوماً على إنكارهم يوم البعث والجزاء (٣).

وقد سجل الله تعالى عليهم تكذيبهم
وعدم تصديقهم في كثير من الآيات
منها قول الله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾
٤٢ ﴿قَالُوا لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٤٣) ﴿لَوْ نَكُنْ نَفُوعٌ﴾
٤٤ ﴿لَيَسْكَنَ﴾ (٤٥) ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْفَاطِيضِينَ﴾ (٤٦)
﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (٤٧) ﴿حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ﴾ (٤٨)
[المدثر: ٤٢-٤٧].

﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أي: بيوم الجزاء،
والثواب، والعقاب (٤).

ومن ذلك ما جاء عن مسروق، عن
عائشة، قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان
في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين،
فهل ذاك نافعه؟ قال: (لا ينفعه، إنه لم يقل
يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين) (٥).

(٣) تفسير المراغي ١٥٨/٨.

(٤) التفسير البسيط، الواحدي ٤٥٦/٢٢.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان،
باب الدليل على أن من مات على الكفر لا

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ
كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا
بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ
اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٩).
[البقرة: ١٠٩].

الحسد: كراهية نعمة على مستحق لها،
وعدت من عظام الذنوب، إذ هو معاندة
الله في إرادته، وهو شر من البخل، فإن
الحسد بخل على الغير بنعمة من لا تنفذ
العطايا نعمة، والعفو ترك العقوبة على
المدنب، وفي الآية تنبيه أن كثيراً من أهل
الكتاب يتمنون ارتدادكم بعد إيمانكم
حسداً، وقوله: ﴿مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي:
من عند هواهم (١).

٤. الصد عن الحق.

قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا
فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].
﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ
سَوَاءً﴾ أي: في الكفر شرعاً سواء (٢).

خامساً: موقفهم من اليوم الآخر:

تعددت مواقف أهل الكفر من أصول
العقيدة، فقابلوا البعث والحساب بالتكذيب

(١) تفسير الراغب الأصفهاني ٢٩١/١.

(٢) تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٣٩٤/١.

وفسر النووي معنى هذا الحديث: بـ«أن ما كان يفعله من الصلة والإطعام ووجوه المكارم لا ينفعه في الآخرة لكونه كافرًا، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (لم يقل: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين) أي: لم يكن مصداقًا بالبعث، ومن لم يصدق به كافرًا، ولا ينفعه عمل. قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: وقد انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب»^(١).

٣. التشكيك والاستهزاء.

لم تسلم الأمور الغيبية أيضًا من سخرية واستهزاء القوم الكافرين.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ نَجْلِ يَبْتِغِيكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مَزْقٍ إِنْكُمْ لَفِيٰ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ أَفَرَأَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِٰ جِنَّةٌ بَلَىٰ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۝٨﴾ [سبأ: ٧-٨].

والمعنى: كلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بأمر البعث كان أهل الكفر يستنفرون الناس استنفار تشويش واستنكار واستهزاء قائلين لهم تعالوا ندلكم على الرجل الذي ينبيء الناس أنهم سيخلقون خلقًا جديدًا بعد أن يموتوا وتبلى أجسادهم

وعظامهم وتفتت وتشتت في الأرض، وكانوا يتساءلون على سبيل الاستنكار^(٢).

سادسًا: موقفهم من الشياطين:

انكب أهل الكفر على اتباع الشياطين فسول لهم الشيطان وأملى لهم، فاتبعوه فكانت الموالاة والاستهواء، ولقد بينت كثير من آيات القرآن الكريم ذلك، منها ما يلي:

١. الموالاة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فموالاة الكفار تعني التقرب إليهم، وإظهار الود لهم بالأقوال والأفعال والنوايا، ومعنى ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الطَّٰغُوتُ﴾ أي الشياطين. وهذا مما يدل على أن الطاغوت جمع^(٣).

٢. التحاكم إلى الشياطين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِٰ وَيُرِيدُ الشَّيْطٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلٰلًا بَعِيدًا ۝٦٠﴾ [النساء: ٦٠].

والمعنى على ذلك: يريدون أن

(٢) التفسير الحديث، محمد عزت، ٢٦٨/٤.

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب المالكي، ٨٥٥/١.

ينفعه عمل، ١٩٦/١، رقم ٢١٤.

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي، ٨٧/٣.

الشَّيْطَانِ ثُمَّ لَنَنْصُرَنَّ ﴿١٩﴾ [المجادلة: ١٩].

والمقصود بالاستحواذ: (الاستيلاء عليهم، من حاذ الإبل يحوذها إذا ساقها سوقاً عنيفاً) (٣).

سابعاً: موقفهم من بعضهم بعضاً:

يقف أهل الكفر صفّاً إلى صفٍّ، فعقيدتهم الموالاة والتبعية لبعضهم البعض، وفيما يلي بعض مواقفهم تجاه بعضهم البعض:

١. الموالاة.

ومعناها محبة أهل الكفر واتباعهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣].

حذر الله تعالى أهل الإيمان أن يتخذوا من اليهود والنصارى أولياء، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

وعلى ذلك فلا يجوز للمسلم أن يوالي كافراً، لكن يجب على المسلم أن يبرأ إلى الله تعالى من أهل الكفر، وأن يوالي أهل الإيمان.

وقد أمر الله تعالى بالبراءة من عبادة الكفار، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّابِعَا﴾

يتحاكموا ويتراجعوا في الخطوب والوقائع إلى الطاغوت المضل عن مقتضى الإيمان والكتب، والحال أنهم قد أمروا في الكتب المنزلة أن يكفروا به، أي: بالطاغوت، وما ذلك إلا أن يريد الشيطان الذي هو رئيس الطواغيت أن يضلهم عن طريق الحق ضلالاً بعيداً، فالتحاكم إلى الطاغوت كفر بالله تعالى.

ولذلك قال «الفخر الرازي»: «يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، فجعل التحاكم إلى الطاغوت يكون إيماناً به، ولا شك أن الإيمان بالطاغوت كفرٌ بالله، كما أن الكفر بالطغوت إيمانٌ بالله» (١).

وعقب الفخر الرازي على قوله بآية أخرى تعقب آية التحاكم، وهي قول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فقال: «وهذا نصٌ في تكفير من لم يرض بحكم الرسول عليه الصلاة والسلام» (٢).

٣. أستحواذ الشيطان على أهل الكفر.

قال تعالى: ﴿أَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ

(١) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، ١٠/ ١٢١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٢/ ٥٠٦.

الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾
وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا
عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ
دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ [الكافرون: ١-٦].

والله تعالى قد أخبر عن البراءة من
المشركين والكافرين فقال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ
مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
﴿١﴾﴾ [التوبة: ١].

٢. التقليد.

قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا
عَلَىٰ أَمَةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ
مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا
إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمَةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ
مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣].

ومعنى ﴿أَمَةٍ﴾ أي: دين^(١)، فيه دلالة
على إبطال التقليد، لئلا يذمهم إياهم على تقليد
آبائهم، وتركهم النظر فيما دعاهم الرسول
عليه الصلاة والسلام إليه^(٢)، لأن أصل الأمة
الجماعة، والصنف، كقوله: ﴿وَمِمَّن ذَابَتْ فِي
الْأَرْضِ وَلَا ظَلَمَ يَظِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾
[الأنعام: ٣٨].

ثم يستعار في أشياء منها: الدين. كقوله:
﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمَةٍ﴾ أي: على

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٨٤/٢١،
الكشف والبيان، الثعلبي ٣٣٢/٨، الوجيز،
الواحد، ص ٩٧٢، تفسير القرآن،
السمعاني، ٩٧/٥.

(٢) أحكام القرآن، الكيا الهراسي، ٣٦٩/٤.

دين، لأن القوم كانوا يجتمعون على دين
واحد، فتقام الأمة مكان الدين، ولهذا قيل
للمسلمين: أمة محمد صلى الله عليه وسلم،
لأنهم على ملة واحدة، وهي الإسلام^(٣).
وسبب تقليد أهل الكفر الألفة والعادة
واتباع الهوى والجهل.

يقول ابن كثير معلقاً على الآية: ﴿بَلْ
قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمَةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ
مُّقْتَدُونَ﴾ «أي: ليس لهم مستند فيما هم
فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد،
بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين
هاهنا»^(٤).

(٣) انظر تفسير السمرقندي، ٢٥٥/٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢٢٤/٧.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾
[النساء: ١٦٧] (١).

ويذكر الفيروزآبادي قسمي الإضلال فيقول: «والإضلال أيضًا على قسمين: أحدهما: أن يكون سببه الضلال، وذلك على وجهين: إما أن يضل عنك الشيء، كقولك: أضللت البعير، أي: ضل عني؛ وإما أن يحكم بضلاله. فالضلال في هذين سبب للإضلال.

الضرب الثاني: أن يكون الإضلال سببًا للضلال، وهو أن يزين للإنسان الباطل ليضل، كقوله تعالى: ﴿هَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١١٣].

أي: يتحرون أفعالًا يقصدون بها أن تضل، فلا يحصل من فعلهم ذلك إلا ما فيه ضلال أنفسهم (٢).

ومن مظاهر الضلال:

١. الشرك بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

٢. اتباع قرين السوء والشيطان، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْضُرُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥١٠.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤٨٣/٣، ٤٨٢، بتصرف.

صفات الكافرين

أخبر القرآن الكريم في كثير من آياته عن صفات الكافرين، ولعل من أبرزها الضلال والغرور، فلا يريدون السير في الطريق المستقيم، وظنهم أنهم على الحق وما سواهم على الباطل، أنعم الله تعالى عليهم بالجوارح فلم يتفتعوا بها، بل سخروها في محاربة الإسلام وأهله، فظلموا مَنْ تَمَسَّكَ بدينه، كل هذا بسبب الحسد والهوى الذي تمكن من قلوبهم، بل كانوا يتبعون الباطل ويجادلون به، فركنوا إلى هواهم، ولقد دلت آيات القرآن كما سأبين فيما يلي.

أولاً: الضلال والإضلال:

يُقَسِّمُ الراغب الأصفهاني الضلال إلى قسمين فيقول:

❖ ضلالٌ في العلوم النظرية، كالضلال في معرفة الله ووجدانيته، ومعرفة النبوة، ونحوهما المشار إليهما بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

❖ وضلالٌ في العلوم العملية، كمعرفة الأحكام الشرعية التي هي العبادات، والضلال البعيد إشارة إلى ما هو كفر كقوله على ما تقدم من قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦]. وقوله:

﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّى يَتَبَوَّى لَمْ أَخِذْ فَلَا تَا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾
لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا
﴿٢٩﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

٣. عبادة الأصنام، قال تعالى على لسان
الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ
إِنِّي أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَثْ
فَانَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿٣٠﴾ [إبراهيم: ٣٦].

٤. التقليد دون تفكير، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ
أَلْفَوْا آيَاتِي ثُمَّ ضَلُّوا عَنْهَا وَكَانُوا
يَكْفُرُونَ ﴿٣١﴾ فَهُمْ عَلَىٰ عَذَابٍ
بَهِيمٍ ﴿٣٢﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠].

٥. الصد عن الحق، واستحباب الدنيا
على الآخرة، قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ
لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٣٣﴾
الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى
الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ
﴿٣٤﴾ [إبراهيم: ٣-٣٤].

ثانيًا: الغرور:

مدار الغرور الجهل، يقول العز بن
عبد السلام: «ومدار الغرور كله على
الجهل، فما اغتر الكفار بعبادتهم إلا جهلاً
منهم بحبوطها، وما اغتر المبتدعة ببدعهم
إلا جهلاً منهم بيطلائها، وما اغتر الأغنياء
بغناهم إلا جهلاً منهم بأنه فتنة ومحنة، وظناً

منهم أنه كرامة ونعمة، وكذلك اغترار العابد
بعبادته والزاهد بزهادته، والعارف بمعرفته،
وربما أقدم هؤلاء على معصية ربهم ظناً
منهم أن الله عز وجل لا يؤاخذهم بقربهم
إليه وكرامتهم عليه»^(١).

وأسباب غرور الكفار:

١. شدة إعجابهم بالدنيا، وحرصهم عليها،
قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي
الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ
بِنَائِهِ ثُمَّ يَسِيحُ فَرْدُهُ مُصْفًى ثُمَّ يَكُونُ
حُطْلَمًا فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ
مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ
الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ [الحديد: ٢٠]. والمعنى:
(أراد الكفار بالله، وخصهم بالذكر؛
لأنهم أشد إعجاباً بالدنيا، وأكثر حرصاً
عليها)^(٢).

٢. الاستكبار والإعجاب بالنفس، قال
تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً
[فصلت: ١٥]. والمعنى (استكبروا عن

أمر ربهم وتجبروا، وأعجبهم بطشهم
وقوتهم، وما أعطاهم الله من عظم
الخلق وشدة البطش، ونسوا أن الذي

(١) مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل، العز بن
عبد السلام ص ١٥٦.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزى الكلبي،
٣٤٧/٢.

لِيَجْهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].

يقول البغوي: «لأن العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود»^(٢).

٢. عدم إبصارهم رغم وجود أعينهم، قال تعالى: ﴿أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٣. عدم سماعهم رغم وجود آذانهم، قال تعالى: ﴿وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَصْغَىٰ أُولَئِكَ هُمْ الْقَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. والمعنى:

(وصفهم بأنهم لا يبصرون بعيونهم ولا يعقلون بقلوبهم. جعلهم في تركهم الحق وإعراضهم عنه، بمنزلة من لا يبصر ولا يعقل. ثم قال جل وعز ﴿بَلْ هُمْ أَصْغَىٰ﴾. وذلك أن الأنعام تبصر منافعها ومضارها، فتلزم بعض ما لا تبصره)^(٣).

٤. عدم استخدام حواسهم إلا في خدمة أغراضهم، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاً وَنِدَاءً هُمْ فِيكُمْ عُتَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. وعدم استخدام الحواس في الطاعة والتفكير والتدبر يدل على عدم عمل العقل، مما لا ينتفع

خلق ذلك فيهم وأعطاهم إياه هو أشد منهم قوة، فجحدها بآيات الله عز وجل وكفروا بها)^(١).

٣. عدم تعجيل العذاب للكافرين في الدنيا، فيجعلهم يتمادون في الغرور قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِّنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

٤. كثرة المال والعطاء، يجعل الكافر في غرور شديد، ولا ينسب العطاء لله تعالى، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَدًا ۖ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَوْ آخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٧-٧٨].

ثالثاً: عدم الانتفاع بالعقل والجوارح:

إن الكافر لا يشغل عقله بما ينفعه، ولا يستخدم جوارحه إلا في الذي يضره، وفي تقليد الأنعام.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَمُ وَالنَّارُ مَثْوًىٰ لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

ولقد ذم القرآن الكريم أهل الكفر بسبب عدم تعقلهم وتدبرهم، ومن أمثلة ذلك كما جاء في القرآن ما يلي:

١. عدم تعقلهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا

(٢) معالم التنزيل، البغوي، ١/ ١١٠.

(٣) معاني القرآن، الزجاج، ٢/ ٣٩٢.

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١٠/ ٦٤٩٨.

الكفار به.

رابعاً: الظلم:

الظلم في اللغة معناه: (الجور ومجاوزة الحد، وأصل الظلم، وضع الشيء في غير موضعه) (٣).

وعرف الظلم في الاصطلاح بأنه: (وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو زيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه) (٤).

وفسر الشرك بالظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

تفسير الظلم بالشرك علي إطلاقه، وإن فسر بما هو أعم فيحمل كل على ما يليق به (٥).

ويدلل على هذا المعنى ما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. قلنا: يا رسول الله، أين لا يظلم نفسه؟ قال: (ليس كما تقولون ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. بشرك، أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلمٌ عظيم) (٦).

(٣) انظر: النهاية، ابن الأثير، ١٦١/٣، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ١١٣٤، المصباح المنير، الفيومي، ص ١٤٦.

(٤) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥٤١/٣.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٣٥٥/٨.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث

٥. عدم عظة الكافر ممن كان قبله، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وعدم الاعتبار أو العظة يدل بالحال على فساد العقل، والمعنى (فتكون لهم قلوب يعقلون بها، يعني: فتصير لهم قلوب بالنظر والعبرة لو كانوا يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها التخويف). ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾، أي: النظرة بغير عبرة، ويقال: كلمة الشرك. ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، يعني: العقول التي في الصدور، وذكر الصدر للتأكيد (١) والدليل على أن الكافرين لم يجعلوا للعقل حظاً من التفكير، ولم يجعلوا لجوارحهم نصيباً من النظر والسمع قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. نسمع سماع من يميز ويتفكر، ونعقل عقل من يتدبر وينظر ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ والمعنى: إننا لم نسمع الحق ولم نعقله، أي: لم ننتفع بأسماعنا وعقولنا) (٢).

(١) تفسير السمرقندي، ٤٦٣/٢.

(٢) انظر تفسير القرآن، السمعاني، ١٠/٦.

ومن افترى على الله كذبا، كمن زعم أن له ولدا أو شريكا، أو أن غيره يدعي معه أو من دونه أو يتخذ وليا له يقربه إليه زلفى ويشفع للناس عنده، أو زاد في دينه ما ليس منه، أو من كذب بآياته المُنَزَّلَةِ كالقرآن، أو آياته الكونية الدالة على وحدانيته^(٣).

٤. موالاة أعداء الله تعالى، والمقصد اتباع أرباب الكفر، قال تعالى: ﴿يَتَّابِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَءِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيَكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

٥. السخرية من المرسلين، قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧].

خامسا: اتباع الباطل والمجادلة به:

والباطل ضد الحق، ومقصوده هنا الكفر والانحراف، ولقد جاءت آيات القرآن الكريم كثيرة في هذا المعنى تبين أساليب الكافرين، في المجادلة الباطلة عن عقيدتهم بغية الانتصار للنفس، دلت آيات القرآن الكريم على كثير من أسباب الباطل والمجادلة به، فجاءت الآيات مبينة ومؤكدة

وأسباب الظلم:

دلت آيات القرآن الكريم على كثير من أسباب الظلم منها:-

١. الكفر، قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. دليل على أن كل كافر ظالم لنفسه^(١)

٢. الكبر والغرور، ويتجلى ذلك في قصة النمرود، عندما قال لنبي الله إبراهيم عليه السلام ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمَيِّتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمَيِّتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فحمله غروره وكبره على مجادلة نبي الله إبراهيم، فنسب لنفسه الموت والحياة، وبأنه يقدر على فعل ما يفعله الله تعالى^(٢).

٣. الكذب على الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]. والمعنى: (لا أحد أظلم

الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خلیلا)، ٤/ ١٤١، رقم ٣٣٦٠.

(١) فتح البیان، صديق خان ٨٨/٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١١١.

(٣) انظر: تفسير المراغي ٧/ ٩٥.

لحال الكافرين في الصد عن دين الله تعالى، وفي اقترافهم للسبل التي اتخذوها ليكذبوا الرسل، ومن هذه الآيات القرآنية ما يلي:

١. المجادلة في الدين، وهو بمعنى الخصام في الدين، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَلَنْ يَرَوْا كَلَّ مَآيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٢٥].
والمعنى: ﴿وَلَنْ يَرَوْا كَلَّ مَآيَةٍ﴾، علامة تدل على صدقك ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ هذا حالهم في البعد عن الإيمان ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ مخاصمين معك في الدين^(١).

٢. جحود الحق، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَانُوا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنفال: ٦]. والمعنى: جحود الحق بعد وضوح برهانه علم لاستكبار صاحبه، وهو - في الحال - في وحشة غيِّه معاقب بالصد وتنغص العيش، يملُّ حياته ويتمنى وفاته^(٢)، ومنه قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي مَآيَةِ اللَّهِ أَنْ بَصُرُوا ﴿١١﴾﴾ [غافر: ٦٩].

يعني: يجحدون بآيات الله^(٣).
٣. إحياء الشياطين للكافرين بالجدال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١].
والمعنى (أي) يوسوس الشيطان لوليّه فيلقي في قلبه الجدال بالباطل^(٤).
٤. خصام الرسل وتكذيبهم، ومنه أيضًا قول الله تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ لَعْنَهُمْ وَاتَّخَذُوا مَآيَتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُولًا ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف: ٥٦]. وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَيُجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ لَعْنَهُمْ فَآخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [غافر: ٥]. والمعنى ﴿وَيُجَادِلُوا﴾ أي: خاصموا رسولهم ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ من القول ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ أي: ليزيلوا ﴿بِهِ لَعْنَهُمْ فَآخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ ومنه مكان دحض، أي: مزلة، ومزلة أقدام، والباطل داحض؛ لأنه يزلق ويزول فلا يستقر، جادلوا الأنبياء بالشرك لبيطلوا به الإيمان^(٥).

(٣) تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/ ١٤٢.

(٤) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ٢/ ٢٨٧.

(٥) فتح البيان، صديق خان ١٢/ ١٦٢.

(١) الوجيز، الواحدي، ص ٣٤٨.

(٢) لطائف الإشارات، القشيري، ١/ ٦٠٤.

على الكافرين منها:

١. إرسال الرسل، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] والمعنى: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ أي: ييسرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب. وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والندارة، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه؛ لئلا يبقى لمعتذر عذر^(١).

٢. الدعوة إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَقَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

٣. المجادلة بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [١٥٥].

سنة الله في الكافرين

أرسل الله الأنبياء والرسل ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فإذا أطاعوهم فقد اهتدوا، وإن تولوا فقد أقيمت عليهم الحجة، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

وقد أمهلهم الله تعالى عساهم أن يتوبوا وأن يأخذوا العظة والعبرة ممن سبقهم، وتارة تكون سنة الله تعالى الاستدراج، ولعلها أيضًا تفتح لهم طريق الهداية، فلما أصروا على كفرهم وعنادهم أمر الله تعالى بمجاهدتهم، ولقد جاءت آيات القرآن الكريم تبين عدم التسوية بين المؤمن والكافر أبدًا، فالمؤمن في معية الله تعالى يثمر بما أمره الله به، وينتهي بنهيه، والله تعالى ترك بابًا لا يغلق هو باب التوبة، فالكافر لو تاب إلى الله توبة نصوحة بَدَل ما كان عليه من سيئات وذنوب إلى حسنات، ولا أدل على ذلك من رحمة الله تعالى بعباده، فالله تعالى لا يرضى لعباده الكفر، لكنهم لما اتبعوا أهواءهم حل ما حل بهم من الركون إلى الشياطين.

أولاً: إقامة الحجة عليهم:

أخبر سبحانه وتعالى بأنه غني عن العباد جميعًا، وتعددت إقامة الحجة في القرآن

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٧٥.

ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾

[الحج: ٤٢-٤٤]. فأقام الله تعالى عليهم الحجج بعد إخبارهم بعاقبة من كفر قبلهم.

ثانيًا: الإملاء والإمهال:

والمقصود من الإملاء: التأخير.

قال تعالى: ﴿وَأَمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ

﴿١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٣].

والمعنى قوله تعالى: ﴿وَأَمْلِ لَهُمْ﴾ أي:

أمهل لهم وأؤخر لهم^(٣).

فعلى ذلك فإن المقصود بالإملاء إطالة

المدة، يقول الواحدي معلقًا على قوله تعالى

﴿وَأَمْلِ لَهُمْ﴾: أي: أطيل لهم مدة عمرهم

ليتمادوا في المعاصي^(٤).

لذلك وقت الله تعالى العذاب بأجل

مسمى، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى

لَجَاءَ مُرُءَاةً عَذَابٍ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ

مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [فصلت: ٤٥].

والإملاء والإمهال له عدة أسباب في

القرآن الكريم منها:

١. بيان عاقبة الطغاة، وسوء مصيرهم،

قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ

الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣]. وفي

موضع آخر: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ

[النحل: ١٢٥]. هدف الدعوة الأول

هو إدخال الناس في الإسلام؛ ولذا

فإن الدعوة تكون بالحكمة والموعظة

الحسنة، وأما الهدف الأول للجدال

والمحاججة، فهو دفع الخصوم وإقامة

الحجة، وبعدها يأتي هدف اقتناع

المجادل بالحق؛ ألا ترى - رحمك

الله - أن المسلمين يفرحون عند

إفحام خصومهم من الكفار ولو لم

يهتد منهم أحد؛ لأنهم حققوا الهدف

الأول من الجدل^(١)، كما قال تعالى:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا

بِالَّتِي مِنْ أَحْسَنِ الْآلَاءِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾

[العنكبوت: ٤٦]. فأمره تعالى بليين

الجانب، كما أمر موسى وهارون،

عليهما السلام، حين بعثهما إلى فرعون

فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ

يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]^(٢).

٤. بيان عاقبة الأمم الكافرة، حفّل القرآن

الكريم ببيان عاقبة المكذبين في الدنيا،

ومن ذلك قوم نوح وقوم عاد وثمود

وغيرهم، قال تعالى: ﴿وَلِنْ يَكْذِبُواكَ

فَقَدْ كَذَّبْتَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودُ

﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ

مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ

(١) التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق

المعاني، سامي القدومي ص ٢٥١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦١٣/٤.

(٣) انظر تفسير القرآن، السمعاني ٢/٢٣٦.

(٤) انظر الوجيز، الواحدي، ٤٢٣/١.

عَنِيبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ [القصص: ٤٠].
وفي موضع ثالث: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَنِيبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]. وفي
الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه،
قال: قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا
أخذه لم يفله) قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ
أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ
أَخْذَهُ رَبِّكَ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (١).

٢. ليميز الله الخبيث من الطيب، قال
تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا
أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾
[آل عمران: ١٧٩].

٣. الإضلال والشقاء ليزدادوا إثماً،
قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ
وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ
كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]. وقال

تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ
لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيُزَادُوا
إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل
عمران: ١٧٨]. وقال تعالى: ﴿فَهَلْ

ثالثاً: الاستدراج:

استدرج الله المرء: جره قليلاً قليلاً إلى
العذاب. قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ
لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢، القلم: ٤٤].

(كلما جدّدوا خطيئة جدّدنا لهم نعمة
وأنسيناهم شكر النعمة واستغفار الذنب) (٢).
ولقد بينت آيات القرآن الكريم الهدف
من الاستدراج، فتارة يكون الهدف التوبة،
فيذكرهم الله تعالى بحال السابقين قبلهم
وأن الله تعالى أهلكهم لما كذبوا الرسل،
قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ
لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا
لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣].

ويذكرهم بحال الأخسرين أعمالاً حتى
يستفيقوا من غفلتهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ
نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الزمر: ١٣] الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٤﴾
[الكهف: ١٠٣-١٠٤].

وتارة يكون الهدف الإغواء والضلال،
قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَسَّوْا مَا دُحِكِرُوا بِهِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير
القرآن، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك إذا
أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد)،
٤٧/٦، رقم ٤٦٨٦، ومسلم في صحيحه،
كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم
الظلم، ٤/١٩٩٧، رقم ٢٥٨٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٩١٩.
(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٩٢.

فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ [الأنعام: ٤٤].

والمعنى (وقوله): ﴿فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: استدرجناهم بالنعم التي كنا متعناهم إياها^(١).

وفي الحديث عن عقبة بن عامر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج) ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]^(٢).

المستدرجون في القرآن: أهل الكفر المكذبون بآيات الله تعالى ورسوله، والمتكبرون، والظالمون، والله تعالى قد يغدق عليهم العطايا فيمتعهم بعض السنين، ثم يأتيهم العذاب فما أغني عنهم ما تمتعوا به من ملذات الدنيا.

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢٠٢٢/٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٥٤٧/٢٨، رقم ١٧٣١١، والطبراني في الأوسط، ١١٠/٩، وفي الكبير، ٣٣٠/١٧. وحسنه العراقي في تخريجه لأحاديث إحياء علوم الدين، ٢١٧٢/٥، رقم ٣٤٢٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٥٨/١، رقم ٥٥٦.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٥-٢٧].

(أي: إنهم وإن طال تمتعهم بنعم الدنيا، فإذا أتاهم العذاب لم يغن طول التمتع عنهم شيئاً، ويكون كأنهم لم يكونوا في نعيم قط)^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

والمعنى: إن الله تعالى إذا أغدق النعم على العبد المعرض عن طاعته المقيم على معصيته فهذا استدراج من الله تعالى، والمعنى تؤيده السنة النبوية كما في الحديث عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا رأيت الله يعطي العبد، وهو في ذلك مقيم على معاصيه، فإنما ذلك منه استدراج). ثم تلا قول الله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾

(٣) الباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٨٨/١٥.

والمعنى: (حتى لا يكون شركاً بالله، وحتى لا يعبد دونه أحد، وتضمحل عبادة الأوثان والآلهة والأنداد، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان)^(٣)، وفي الحديث عن أبي موسى، قال: (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضباً، ويقاثل حمية، فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً، فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله عز وجل)^(٤).

٣. أن يكون دفاعاً عن النفس، ورداً لا اعتداء الكفار، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الَّذِينَ أَلْفَتُمْ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

(٣) جامع البيان، الطبري، ٣/ ٥٧٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من سأل، وهو قائم، عالماً جالساً، ٣٦/١ رقم ١٢٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، ٣/ ١٥١٢، رقم ١٩٠٤.

أَخَذَتْهُمْ بَغْتَةً إِذْ هُمْ مُمْلِسُونَ ﴿١﴾.

رابعاً: الأمر بمجاهدتهم:

أمر الله تعالى نبيه بمجاهدة الكافرين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

ولذلك فإن أصل القتال المشروع هو الجهاد، حتى يكون الدين كله لله تعالى، يقول «ابن تيمية»: «أصل القتال المشروع هو الجهاد، ومقصوده هو أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا فمن امتنع من هذا قوتل باتفاق المسلمين»^(٢)، ولذلك كان الأمر بمجاهدة الكفار لأسباب كثيرة منها ما يلي:

١. أن يكون الجهاد تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَعُدُّوهُمْ وَأَقْبِلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٨٩].
٢. أن يكون الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أُنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

(١) الحديث أخرجه أحمد في مسنده، ٥٤٧/٢٨، وابن جرير في تفسير ١١٥/٧.

وحسنه العراقي في تخريج الإحياء، ٤/ ١٦٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٦١.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٣٥٤/٢٨.

٤. إذا تقابل الصفان، فلا يجوز التولي

بل يجب مجاهدة الكفار، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ

كَفَرُوا زَحَفُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ١٥﴾

وَمَنْ يُولِهِمْ يُوزِدْ دُبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ

أَوْ مُتَحَرِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَكَءٌ بِغَضَبٍ

مِنْ اللَّهِ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمُ وَبَيْسَ الْمَصِيرُ

﴿١٦﴾ [الأفقال: ١٥-١٦]. والمعنى:

(إذا التقى الزحفان في صف القتال،

وتزاحف الرجال، واقترب بعضهم

من بعض، فلا تولوهم الأدبار بل اثبتوا

لقتالهم، واصبروا على جلادهم، فإن

في ذلك نصرة لدين الله) (١).

خامسًا: غنى الله تعالى عنهم:

إن الله تعالى غني عن الخلق أجمعين،

لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا يضره كفر

الكافرين، ولقد جاءت الآيات القرآنية تبين

ذلك، وتوضح أن الله تعالى لا يبالي بخلقه

إن لم يعبدوه، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْجُزُ أَكْثَرُ

رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ

لِرَأْسَائِهِمْ ﴿٧٧﴾ [الفرقان: ٧٧].

والمعنى ﴿قُلْ مَا يَعْجُزُ أَكْثَرُ رَبِّي﴾ أي: لا

يبالي ولا يكثرث بكم إذا لم تعبدوه؛ فإنه

إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه

بكرة وأصيلًا، لولا إيمانكم) (٢).

بين الله سبحانه وتعالى أن له ملك

السموات والأرض، ولقد أخذ العهد

والميثاق على الأمم السابقة أن يعبدوه ولا

يكفروا به، فإن كفروا فإنه سبحانه وتعالى

غني عن الخلق أجمعين، قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ

وَأَيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا

﴿١٣﴾ [النساء: ١٣].

والمعنى: (وإن تكفروا كما كفر أهل

الكتاب فإن لله ما في السموات وما في

الأرض إنه لا يضره كفرهم؛ إذ له كل

شيء، كما لم يضره ما فعل أهل الكتاب

في مخالفتهم أمره، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ أي:

غني عن خلقه، فأخبرنا في هذه الآية بغناه

عنا) (٣).

أخبر الله تعالى على لسان بعض الأنبياء

صلوات الله وسلامه عليهم أنه غني عن

جميع الخلائق إنسهم وجنهم، قال تعالى

على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى

إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ

حَمِيدٌ ﴿٨﴾ [إبراهيم: ٨].

والمعنى: إن تكفروا وجميع الخلق من

الثقلين نعمته تعالى ولم تشكروها، ﴿فَإِنَّ

الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب

(٣) ١٤٩١/٢.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣١٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٣٤/٦.

ولذلك يقول ابن القيم: «فإنه سبحانه ذكر الكفار، ووصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون، ثم ذكر المؤمنين، ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى ربهم، فوصفهم بعبودية الظاهر والباطن، وجعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم من حيث كان قلبه أعمى عن رؤية الحق أصم عن سماعه؛ فشبهه بمن بصره أعمى عن رؤية الأشياء، وسمعه أصم عن سماع الأصوات، والفريق الآخر بصير القلب سميعه، كبصير العين وسميع الأذن؛ فتضمنت الآية قياسين وتمثيلين للفريقين، ثم نفى التسوية عن الفريقين بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤] (٢).

وأهل الإيمان هم أهل الهداية، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]. وأهل الكفر هم أهل الضلال، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ [الروم: ٤٤]. وأهل الإيمان هم أهل الفلاح، الذين آمنوا بالله ورسوله.

قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وأهل الكفر هم أهل الخسران. قال تعالى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ شَرُّوا مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَّبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَّنَا مِن شُفْعَاءَ

اللَّهِ﴾ سبحانه ﴿لَعَنَ﴾ عن شكركم لا يحتاج إليه، ولا يلحقه بذلك نقص ﴿حَمِيدٌ﴾ أي: مستوجب للحمد لذاته؛ لكثرة إنعامه وإن لم تشكروه، أو يحمدته غيركم من الملائكة، وتنطق بنعمه ذرات الكائنات (١).

إن الله سبحانه وتعالى غني عن جميع خلقه مسلمهم وكافرهم، فكيف حال أهل الكفر والجحود، فإن الله تعالى أرسل الرسل بالبيانات والهدى من أجل الخلق جميعاً، فمنهم من صد وجحد فاستغنى الله عنهم.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَعْمِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْلِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرًا يَّهْدُونَنَا فَكُفِّرُوا وَتَوَلَّوْا ۚ وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٥-٦].

ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٧].

سادساً: لا يستوي المؤمن والكافر:

فرق الله تعالى بين الظلمات والنور، فالظلمات هي الكفر، والنور هو الإيمان، والكفر هو العمى، والإيمان هو البصر.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَحِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

(٢) إعلام الموقعين، ابن القيم، ١/ ١١٩.

(١) فتح البيان، صديق خان ٧/ ٨٨.

فَيَسْأَلُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ ﴿[الأعراف: ٥٣].

وأهل الإيمان لا خوف عليهم ولا هم
يحزنون.

قال تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وأهل الكفر عليهم ذلة ومسكنة وغضب
من الله ومن الناس.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ
وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
الْنَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
يَسْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وتارة أخرى يصف الله تعالى حال
أهل الكفر والجحود بأهون البيوت بيت
العنكبوت.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ
دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ
اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ
الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾
[العنكبوت: ٤١].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: (الأصنام يرجون نصرها
ونفعها عند حاجتهم إليها) ﴿كَمَثَلِ
الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ لنفسها كيما

يكنها، فلم يغن عنها بناؤها شيئاً عند حاجتها
إياه، فكما أن بيت العنكبوت لا يدفع عنها
بردًا ولا حرًا، كذلك هذه الأوثان لا تملك
لعابديها نفعًا ولا ضًا ولا خيرًا ولا شرًا^(١)،
وأهل الإيمان يشبههم الله تعالى في الدنيا
والآخرة.

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

(١) انظر الكشف والبيان، الثعلبي، ٢٧٩/٧.

الكفر بعد الإيمان

الدخول في الإيمان ثم الخروج منه يطلق على الرِّدَّة، والرِّدَّة لها ركن أساسي وهو إجراء كلمة الكفر على اللسان بعد الدخول في الإيمان، يقول «الكاساني الحنفي»: «أما ركنها، فهو إجراء كلمة الكفر على اللسان بعد وجود الإيمان، إذ الرِّدَّة عبارة عن الرجوع عن الإيمان، فالرجوع عن الإيمان يسمى رِدَّةً في عرف الشرع^(١).

وأهل الكفر دائماً يتربصون بأهل الإيمان ليردوهم عن دينهم، قال الله تعالى حكاية عن قوم شعيب عليه السلام ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مَلِئْنَا قَالِ أَوْلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

والمعنى: (لنخرجنك يا شعيب ومن آمن بك من بين أظهرنا، أو لترجعن أنت وهم إلى ديننا، قال شعيب مجيباً لهم قال: ﴿أَوْلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ أي: أتجبروننا على الخروج من الوطن، أو العودة في ملتكم، ولو كنا كارهين لذلك؟ والاستفهام للإنكار^(٢).

وللكفر بعد الإيمان عدة صور في القرآن الكريم منها:

١. الكفر الصريح بعد الدخول في الإيمان والاستمرار عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا

ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّيَكُنِيَ اللَّهُ يَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا يُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧].

(يعبر تعالى عن دخل في الإيمان ثم رجوع عنه، ثم عاد فيه ثم رجوع، واستمر على ضلاله وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته، ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً، ولا طريقاً إلى الهدى)^(٣).

٢. الاستهزاء بالله أو بشيء من آياته أو بالرسول، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

٣. إنكار السنة، فمن آمن بالله واتبع رسوله، ثم فرق بين القرآن والسنة، فقد كفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

٤. من انتقص من مقدار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

(١) انظر بدائع الصنائع، الكاساني ١٣٤/٧.

(٢) صفوة التفاسير، الصابوني، ص ٤٢٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٤٣٤.

توبة الكافر

جعل الله تعالى باباً لا يغلق، أسماه باب التوبة، يغفر فيه الذنوب جميعاً، حتى من أشرك بالله وتاب إليه قبله.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا يَقْضُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

هذه الآية عامة في جميع الناس إلى يوم القيامة في كافر ومؤمن، أي: إن توبة الكافر تمحو ذنوبه، وتوبة العاصي تمحو ذنبه^(١). وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْلِيَّتِكَ آتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠].

والمعنى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾: من الكفر، ﴿وَأَصْلَحُوا﴾: أسلموا أو أصلحوا الأعمال فيما بينهم وبين ربهم، ﴿وَبَيَّنَّا﴾: ما كنتموا، ﴿فَاوْلِيَّتِكَ آتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾: أتجاوز عنهم جميع سيئاتهم وأقبل توبتهم، ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: الرجاء بقلوب عبادي^(٢).

إذا تاب الكافر أو المشرك توبة نصوحة، غفر الله له، والمقصود بالشرك أن يجعل لله نداً - أي: مثلاً في عبادته أو محبته أو خوفه أو رجائه أو إنابته، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥٣٦/٤.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ١٩٤/١.

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأَنْفَال: ٣٨].

وهذا هو الذي قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مشركي العرب؛ لأنهم أشركوا في الإلهية.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]^(٣).

فإذا أحسن العبد بعد إسلامه لم يؤخذ بفعاله قبل الإسلام، بل تبدل للحسنات.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رجل: يا رسول الله، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر^(٤).

ومن أدلة مضاعفة الحسنات مكان

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٩١/١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إثم من أشرك بالله، وعقوبته في الدنيا والآخرة، ١٤/٩، رقم ٦٩٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية، ١١١/١، رقم ١٢٠.

عاقبة الكفر

جاء القرآن الكريم مبيناً لحال أهل الكفر في الدنيا، فبين أنهم لن يهتدوا لاتباعهم الهوى وسيرهم في ركاب من سبقهم من أهل الكفر، فاستحقوا اللعن والخذلان، والضيق والخسران، والعذاب المستأصل لهم في الدنيا، وشدة التنكيل بهم عند الاحتضار، والعذاب الدائم في القبر، والأمر لا ينتهي بعد، فعقاب الآخرة أشد وأبقى.

أولاً: عاقبته في الدنيا:

تعددت أصناف العقوبات للكفار في الدنيا، ولقد ذكرت آيات القرآن الكثير من هذه العقوبات بما يلي:

١. حرمانهم من الهداية، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَّيَكُنِيَ اللَّهُ يَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧].
٢. اللعن، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤]. ويفهم من الآية أن الله تعالى لعن الكافرين، ومن لعن الله لهم طردهم من رحمته، وأعدَّ لهم في الآخرة ناراً موقدة شديدة الحرارة^(٢)

(٢) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد، ص

السيئات التي كانت في الجاهلية بعد إسلام العبد.

في الحديث الصحيح عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أحسن أحدكم إسلامه: فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها^(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حسن إسلام المرء، ١/١٧، رقم ٤٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب، ١/١١٧، رقم ١٢٩.

٣. الغضب الشديد، قال تعالى: ﴿يَسْكَا أَشْرَوْا بِوَيْءِ أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]. والمعنى: (فلما جاءهم هذا الكتاب والنبى الذي عرفوا، كفروا به، بغيًا وحسدًا، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فلعنهم الله، وغضب عليهم غضبًا بعد غضب، لكثرة كفرهم وتوالي شكهم وشركهم) (١).

٤. الحسرة على إنفاق أموالهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]. وهم يكثرون من الإنفاق لصدد الناس عن دين الله تعالى، لكن ينقلب الأمر عليهم فتصبح هذه الأموال حسرة عليهم، يقول: السمرقندي: ﴿لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: ليصرفوا الناس عن دين الله وطاعته، ﴿فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ يعني: تكون نفقاتهم

عليهم حسرة وندامة، لأنها تكون لهم زيادة العذاب» (٢).

٥. الضيق والحرَج الشديد، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. والمعنى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يوسع قلبه ويفتحه ليقبل الإسلام ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ شديد الضيق ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ إذا كلف الإيمان لشدته وثقله عليه ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ما قصصنا عليك ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ﴾ العذاب ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣).

٦. إغواء الشيطان لهم، فإن الشيطان قد سول - أي: مناهم وأغواهم - حتى يفتح لهم طرق الشر، فاقتربوا الكبائر، وهذا بسبب صدهم عن سبيل الله تعالى، واتباع الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا نَبَّيْنَاهُمْ لَهُمُ الْهَدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥]. والمعنى:

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٠.
(٣) الوجيز، الواحدي، ص ٣٧٤.

٤٢٧.
(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٥٨.

من أهل الإسلام، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رُبُّكَ إِلَى الْمَلَكِكَةِ إِنِّي مَعَكُمْ فَبَيَّنَّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا سَائِلِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

٩. حرمانهم من الاستغفار لهم، قال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [١١٣] وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ [١١٤-١١٣]. [التوبة: ١١٤-١١٣].

والمعنى: (عن ابن عباس) قوله: ﴿م﴾ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وكانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية، فلما نزلت أمسكوا عن الاستغفار، ولم يتهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله: ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ﴾ يعني:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرَادُوا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ أي: إلى ما كانوا عليه من الكفر. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ بالدلائل الواضحة والمعجزات الظاهرة. ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ سهل لهم اقتراف الكبائر، من السؤل وهو الاسترخاء، وقيل: حملهم على الشهوات من السؤل وهو التمني^(١).

٧. العذاب المستأصل لهم في الدنيا، والمستأصل - أي: العذاب الذي يهلكهم جميعاً - فلا يقيهم، بل يهلكهم بسبب كفرهم - وقد كان في الأمم السابقة، قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَيَجْعَلُوهُ بِالْبَطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥]. أي: (فأهلكتهم واستأصلت شأفتهم، فلم أبق منهم دياراً ولا نافخ نار، وصاروا كأمس الدابر)^(٢).

٨. إلقاء الرعب في قلوبهم في الحروب، من أشد العقوبات التي تلحق بالكافرين في الدنيا الهزيمة التي تقع عليهم من المسلمين، وعدم تمكينهم

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١٢٣/٥.

(٢) تفسير المراغي ٢٤/٤٥.

استغفر له ما كان حيًّا، فلما مات أمسك عن الاستغفار^(١).

١٠. شدة حالهم عند الاحتضار وإهانة الملائكة لهم عند قبض أرواحهم، وتكون الإهانة بضرب الملائكة لأدبارهم ووجوههم لإذلالهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]. والمعنى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي: شدائده وأحواله الفظيعة، وكُربِه الشنيعة - لرأيت أمرًا هائلًا، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها، وتعصيتها للخروج من الأبدان: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: العذاب الشديد، الذي يهينكم ويذلكم، والجزاء من جنس العمل^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ

يَتَرَفُّونَ وَجُوهُهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

١١. العذاب الدائم في القبر، قال تعالى حكاية عن حال فرعون وجنوده: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. والمعنى: هم في العذاب المقيم ليل نهار، وتفسير قوله تعالى: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ - أي: يعرضون على هذه النار في الغدو، أي: أول النهار، وفي العشي، أي: آخر النهار.. وهذا العرض على النار هو في حياتهم البرزخية، الواقعة بين الموت والبعث.. فهم في هذه الفترة يفزعون بالنار التي سيصيرون إليها يوم القيامة، فيردونها صبحًا وعشيًّا؛ ليروا بأعينهم المنزل الذي سينزلونه يوم القيامة^(٣).

ثانيًا: عاقبة الكفر في الآخرة:

كما تعددت أنواع العقوبات للكافرين في الدنيا، تنوعت أيضًا أنواع العقوبات للكافرين في الآخرة، ومن هذه العقوبات المدخرة للكافرين يوم القيامة ما يلي:

١. حبط الأعمال، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَالُونَ لَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُم عَنْ دِينِكُمْ إِن

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، ١٢٤١/١٢.

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٩٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٦٤.

أليس جهنم كافية لهم سجنًا وموتلاً، لهم فيها دار الخزي والهوان، بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق^(١).

٤. خروجهم من القبور أذلاء مسرعين، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾^(٤٣) خَيْمَةً أَبْصُرُهُمْ زَهْرُهُمْ ذَلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ^(٤٤) [المعارج: ٤٣-٤٤].

٥. شخوص أعينهم، أعين الكفار في يوم القيامة لا تقوى على ثباتها، بل تتقلب لعدم قدرتها على الثبات من هول ما ترى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبُ أَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾^(٤٥) [إبراهيم: ٤٢]. والمعنى: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: أبصارهم لا تقرر في أماكنها من هول ما ترى^(٢).

٦. سوقهم كالبهائم، إن أهل الكفر في يوم القيامة يساقون كالبهائم كما أخبر بذلك القرآن، قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ الْمَجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾^(٤٦) [مريم: ٨٦]. والمعنى: ﴿وَسَوْفَ﴾ يدل على أنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء، والورد اسم

أَسْتَظْلِمُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ، قِيمَتْ وَهُوَ كَاثِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[البقرة: ٢١٧].

٢. الحسرة والندامة، في مشهد من مشاهد يوم القيامة يتمنى الكافر بعد ندمه أن لو كان من المهتدين، وقد سجل القرآن الكريم هذا الموقف، فقال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾^(٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ^(٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَىٰ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ^(٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ^(٥٩) [الزمر: ٥٦-٥٩].

٣. سواد الوجه، ومن العقوبات التي تتعلق بالكافرين في يوم القيامة سواد وجوههم، فيفتضح أمرهم، وينظر إليهم جميع الخلق، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَىٰ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ مَسْوَدَةٌ أَلْيَسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾^(٦٠) [الزمر: ٦٠]. والمعنى: ﴿وَجُوهُهُمْ مَسْوَدَةٌ﴾ أي: بكذبهم وافترائهم. وقوله: ﴿أَلْيَسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١١١/٧.

(٢) مدارك التنزيل، النسفي ١٧٨/٢.

للعطاش، لأن من يرد الماء لا يرده إلا للعطش. وحقيقة الورود السير إلى الماء، فسمي به الواردون^(١).

٧. جَرُّهُمْ بالسلاسل والأغلال، عبر القرآن الكريم عن حال أهل الكفر في يوم القيامة وهم يجرون بالسلاسل إلى نار جهنم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٧) ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (٧٢) [غافر: ٧٠-٧٢]. وفي آية أخرى يبين الله

تعالى حال أهل الكفر، حيث يغلون بالسلاسل، قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ (٣٠) ﴿ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلَّوهُ﴾ (٣١) ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (٣٢) ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ (٣٣) ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمُسَكِينِ﴾ (٣٤) [الحاقة: ٣٠-٣٤].

٨. الخلود الأبدي في النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ (١٤) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٦٥) [الأحزاب: ٦٤-٦٥].

٩. شراهم الحميم - أي: الماء شديد السخونة الذي يقطع أمعائهم - قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. و(الحميم: هو الماء الذي

تناهى في الحر، وفي التفسير: إنه ماء سعرت عليه نيران جهنم منذ خلقت، فإذا قرب الكافر إلى وجهه للشرب شوى وجهه، وسقطت جلدة وجهه وفروة رأسه^(٢).

١٠. أكلهم الزقوم، قال تعالى: ﴿أَذَلَّكَ حَيْرٌ نَزَّلًا أَمْ سَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ (١٢) [الصفات: ٦٢]. والمعنى (الزقوم: شجرة مسمومة يخرج لها لبن، متى مس جسم أحد تورم فمات. والتزقم: البلع بشدة وجهه للأشياء الكريهة)^(٣)، وبيان معنى هذه الآية: (قال تعالى مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقاءه: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ﴾ (١٣) ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ (١٤) والأثيم: أي: في قوله وفعله، وهو الكافر)^(٤).

١١. ثيابهم من النار، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩]. والمعنى (نيران تحيط بهم إحاطة الثياب، والحميم: الماء الحار يصهر به ما في بطونهم والجلود، أي: يؤثر من فرط حرارته في باطنهم تأثيره في ظاهرهم، فتذاب به أحشائهم كما

(٢) تفسير القرآن، السمعاني، ١٧٤/٥.

(٣) الدر المصون، السمين الحلبي، ٣١٤/٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢٣٩/٧.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٥٦٥/٢١.

موضوعات ذات صلة:

الإسلام، الإيمان، الشكر، النصارى،
النفاق، اليهود

تذاب به جلودهم^(١).

١٢. عدم قبول الفدية منهم، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا
بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

والفدية إعطاء شيء للإنقاذ^(٢)، ومعنى
الآية (أخبر أن الكافر لو ملك الدنيا كلها
ومثلها معها، ثم فدى بذلك نفسه من
العذاب لم يقبل منه ذلك الفداء، ولهم
عذاب أليم)^(٣).

١٣. الحرمان من النصير، قال تعالى:

﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَقَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى
الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَيمٍ
وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]. ويوم

الآزقة هو يوم القيامة، وسمي بذلك
لقُرْبِهِ، والمعنى ﴿مِنْ حَيمٍ﴾ محب
مشفق ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: يشفع،
وهو مجاز عن الطاعة؛ لأن الطاعة
حقيقة لا تكون إلا لمن فوقك، والمراد
نفي الشفاعة والطاعة^(٤).

(١) انظر أنوار التنزيل، البيضاوي، ٦٨/٤.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، ١٧٧/٤.

(٣) معالم التنزيل، البغوي، ٤٦/٢.

(٤) مدارك التنزيل، الشنقي، ٢٠٥/٣.